تقديم

في علم النفس

بقلم عبد العزيز السيد بولى
صاحب « المعرفة »

« نشرت « دار المعرفة للطبع والنشر » في ٣٠ اكتوبر سنة ١٩٣٢ من طبع الجزء الاول لكتاب عنوانه « في علم النفس » وضعه الاساتذة : حامد عبد القادر ، ومحمد عطية الابراشي ، ومحمد مظهر سعيد . وقد صدر صاحب « المعرفة » هذا الكتاب بتصدير تناول فيه الكلام عن الخلاف في أمر النفس والروح وآراء الفلاسفة فيها ، فاقتطفنا منه هذا الجزء ليطلع عليه قراء « المعرفة » الكرام »

— ١ —

« هذا علم من العلوم الحادثة في الملة » ، بهذه العبارة كان يصدر ابن خلدون كلامه عن كل علم استحدث بعد الاسلام حتى عصره ؛ وهانذا أقف نفس الموقف بعد ستة قرون من ابن خلدون ، فأردد عبارته في القرن العشرين ؛ ذلك أني لم أجد أبلغ من هذه العبارة في التدليل على ما أقصد من هذا التصدير الذي أتاحه لي حضرات الاساتذة الأجلاء : حامد عبد القادر ، ومحمد عطية الإبراشي ، ومحمد مظهر سعيد ، في كتابهم الفذ النادر « في علم النفس » .

والحق أن تصدير هذا الكتاب الفذ ، قد أتاح لي أن أعود إلى ما وعاه ذهني من ذكريات انسانيها العمل الصحفي ، بما فيه من متاعب ومشاغل ؛ تلك ذكريات تمثل جانباً من الدراسات التي أغرمت بها بحثاً وراء الحقيقة : حقيقة الانسان ، وحقيقة الوجود ، وحقيقة الروح ، أو حقيقة النفس ؛ وبأني أن أجد لها موقفاً بين الحقائق المحسوسة ، التي تقوم على القوانين الثابتة .

وأكبر الظن عندي أن هذا الكتاب قد أيقظ في النفس الميل إلى التحدث عن النفس ، أتكون هي الروح ، أم تكون شيئاً آخر ، وهل لا يزال علم النفس فرعاً من فروع الفلسفة ، يستمد منها الحياة والاستمرار ، أم أصبح علماً مستقلا يقوم على دعائم ثابتة ، شأنه في ذلك شأن العلم التجريبي ؟

— ٢ —

فأما عن « النفس » و « الروح » ، فإن المعركة الهائلة التي دارت رحاها بين الفلاسفة قديماً وحديثاً ، والتي تضاربت فيها آراء الفلاسفة تضارباً ، كانت — ولا تزال — قائمة في بعض مسائل النفس حتى الآن .

ذلك أن « سقراط » حين اتخذ هذه العبارة « اعرف نفسك بنفسك » ، التي وجدها محفورة على باب هيكل أبولون في دلفي ... حين اتخذ « سقراط » هذه الحكمة مبدأ له ، أثار من حولها عاصفة هوجاء ؛ ذلك أنه لم يكن قد حدد تلك النفس بعد . ولم يكن يعرف أهي عصب من أعصابنا الظاهرة ، أم ظاهرة من ظواهرنا المستورة ، أهي قبس من الضوء الوضاح يوحي إلينا السعي في غير ضلال ، ويحدد لنا جملة مشاعرنا وإحساساتنا تحديداً دقيقاً . أم هي شيء آخر ؟

لقد بقيت هذه الأسئلة وحدها تحير عقول الفلاسفة في أتون من النار موزعة أفهامهم من موقف صعب إلى موقف أصعب ، وهم بين هذه وتلك ينشدون الحقيقة خالصة نقية .

فإذا نحن توجهنا إلى « أرسطوطاليس » لنأخذ عنه وجوه الرأي الذي انتهى إليه ، لكان علينا أن نقف — في حيرة — أمام رأيه ، ذلك الرأي الذي لا نكاد نعرف منه . إن كان يوحد بين النفس والروح ، أم يفرق بينهما ؛ فهو يقول :

« ربما خلوت إلى نفسي ، وخلعت بدني ، وصرت كأني جوهر مجرد بلا بدن ، فأكون داخلا في ذاتي ، خارجاً عن جميع الأشياء ؛ فأرى في ذاتي من الحسن والبهاء ، ما يبقى متعجباً مبهوتاً . فأعلم أني جزء من أجزاء العالم الأعلى » .

فإن دل هذا القول على شيء ، فإنما يدل على أن الفيلسوف العظيم يعبر عن الروح بالنفس ؛ أو أنه يضيف إلى النفس ميزات الروح وخصائصها ، من صفاء ونقاء ... الخ .

وقد حاول « أرسطوطاليس » نفسه أن يوضح الفرق بين النفس والروح في ثلاث رسائل أسماها « في النفس » ، بحث فيها الإنسان من جانبه العقلي الدقيق . ولكنه لم يوفق كل التوفيق ؛ ذلك أن رسائله الثلاث ، لم تكن قائمة على السياق العلمي المعروف اليوم ، وإنما كانت مبلبلة غامضة .

وإذا كان « أرسطوطاليس » قد ذهب إلى الوحدة الصغرى ، باعتباره نفسه جزءاً من العالم الأعلى ، فإن « ابن سينا » شيخ فلاسفة الإسلام ، قد نادى بأكثر من هذا في قوله :

وتحسب أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر

وهذا ما يعبر عنه « الصوفيون » أو « المثاليون Idealists » بمذهب الوحدة ، أو وحدة الوجود . وكذلك إذا رجعنا إلى « أفلاطون » أستاذ « أرسطوطاليس » ، وجدناه يقسم النفس إلى ثلاث قوى ، هي : الغضبية ، والشهوية ، والناطقة ، تصدر عن شيء رابع هو « النفس » أو الجوهر .

ولكن ! هل ارتضت الأفلاطونية الحديثة هذا التقسيم ، كما ارتضت أكثر ما قال أفلاطون ؟ إنها لم ترفضه كله ، ولم تقبله كله ؛ وإنما أتاحت لجالينوس منه أن يكون شعارها المنشود ، فقبلت تقسيم النفس إلى ثلاثة أقسام : غضبية ، وشهوية ، وناطقة ، دون أن تخوض في ذكر الجوهر .

— ٣ —

وإذا كان ذلك شأن « النفس » فى أفهام الفلاسفة القدماء ، فإن حظها فى أفهام فلاسفة الإسلام كان خيراً وأنفع أثراً ، وإن لم يخل من تعقيد وخلط فى بعض الأحيان ، فلم يسلموا — ثم أيضاً — من القول بالوحدة بين النفس والروح ، كالفارابى ، وابن سينا ، والغزالى ، وابن طفيل ، وابن رشد ؛ وإن كان الغزالى قد وفق بعض التوفيق — أكثر من السابقين — إلى أن يقرر فى تردد ، أن النفس شىء ، والروح شىء آخر .

— ٤ —

ظل إذاً علم النفس يتردد هنا وهناك ، حتى جاء « فيلو Philo » الفيلسوف اليهودى ، فكان أول من فصل علم النفس (Psychology) ، وقرر بأنه ليس فرعاً من فروع الفلسفة ، كما كان معتبراً من قبل — وإنما هو علم خاص مستقل بذاته ، له قواعده وحدوده وأوضاعه — وإن لم يضعها فى عصره — ، كما قرر أنه علم دراسة الظواهر العقلية فحسب : دراسة الوصف الخارجى ، لا الباطنى أو الذاتى للكائن الحى .

لم يكن لعلم النفس إذاً ، أن يشق سبيله نحو الوصول إلى حقائق ثابتة ، لا نشك فيها ، ولا نرفضها جميع العقول ، طالما كان يجرى وراء البحث عن النفس أو الروح ذاتها ؛ والنفس شىء لا يقع تحت الحس ، فهى لا تدخل فى دائرة المحسوسات أو الملموسات ، وإذاً فلن يتفق الناس عليها .

— ٥ —

هذا إن جاء عصر النهضة العلمية الأوربية ، واهتم العلماء بطريقة البحث العلمى الذى يوصلنا إلى المعرفة العلمية الوضعية التجريبية الثابتة ، وعلى رأسهم : جاليليو ، وكوبرنيق ، وبيكون ، وديكارت ... لما جاء ذلك العصر ، ابتدأت العلوم تستقر ، وفى قمتها علم الملك .

ومن بين تلك العلوم التى حاول العلماء وضعها على بوتقة البحث العلمى الوضعى : علم النفس ، فبحث فيه « ديكارت » أبحاثاً عدة ، كان لها بالغ الأثر فى تطور هذا العلم تطوراً جديداً ، وإن كان هو نفسه أخفق فى الوصول إلى دراسة صحيحة فى هذا العلم ؛ لأنه حاول أن يحدد الصلة بين النفس والجسم ، بوجود غدة فى الدماغ أسماها « Glande Pinéale » ، أى الغدة الصنوبرية .

وإذا كان ديكارت قد أخفق فى بحثه ، فإن محاولته التجريبية وجهت أذهان العلماء ، فيما بعد ، إلى انتهاج هذه الطريق ؛ فجاءت المدرسة الانجليزية وعلى رأسها : « جون لوك John locke » و « هيوم Hume » و « هملتون Hamilton » و « سبنسر Spencer » و « وليم جيمس William James » وغيرهم ، فاستطاع كل منهم أن يبسط من دقائق هذا

العلم ، وأن يفتح فيه فتحاً جديداً ، حتى كادوا يصلون إلى وضع جميع القواعد والأوضاع العلمية وضعاً علمياً صحيحاً .

— ٦ —

وقد أخذ العصر الحاضر ما خلفه عصر النهضة الاوربية ، وزاد عليه ما اكتسبه من تجارب حديثة ، ولذلك يعتبر عصر النهضة لعلم النفس ؛ ذلك أن علماء النفس الآن فى أوربا وأمريكا ، قد استطاعوا أن يصلوا إلى تجارب قيمة ، معتمدين فى ذلك على طرق علمية صحيحة ، مستعينين بآلات فى منتهى الدقة ؛ فكان من نتائج هذه التجارب ، أن وضعوا قواعد أودعوها بطون المجلدات ، وعلى رأسهم : مكدوجل Mc Dougall ، وريفرز Rivers ، ودريفر Drever ، وسلى Sully ، وستوت Stout ، وفرويد Freud .

— ٧ —

هذه إلمامة أذاعتها فى نفسى تلك الذكريات التى ابتعثها تصديرى لهذا الكتاب ، فماذا بقى بعدئذ ؟

بقى علىّ أن أصدقك القول بأن كتاب الأساتذة الثلاثة ، قد عبأ لى عرفان ما كنت أجتويه من مسائل النفس جميعاً ؛ فعرفنا أن علم النفس مقصور على دراسة الظواهر العقلية فحسب ؛ وعرفنا أن اللغة العربية ، التى زعم البعض أنها لا تتسع للمصطلحات العلمية الحديثة ، قد سلس لهم قيادها ، فاستطاعوا أن يقتحموا كل باب ، ليثبتوا أنها كفيلة بتسجيل كل كلمة علمية تسجيلا موفقاً .

وإنه لمن شأن هذه الحال أن تدعونا إلى القول بأن هذا الكتاب هو الأول من نوعه ، فيما أخرجته دور الطباعة من أسفار فى علم النفس .

ذلك أنهم كانوا أول من بحث فى : الميول ، والغريزة الجنسية ، ونزعة التدين ، وغريزة الضحك ، وعلم النفس التحليلى ، والعقل الفردى ، والعقل الجمعى ، وعقلية الشواذ ، وقسمة المجرم ، وشهادة الشهود ، والأمزجة والأذواق ، والانفعالات ، والعواطف .

ولم يكن هم الأساتذة الثلاثة متجهاً إلا إلى إذاعة كتابهم على سياق علمى دقيق ، فى أسلوب سلس يفهمه القارىء العادى ؛ فقد لمست جهودهم فى إخراجه ، ورأيت من حرصهم على تكوينه تكويناً علمياً ، ما أستطيع — فى صدده — أن أصرح لك بأنهم جابهوا الأمرين ، حتى باعدوا عنه النزعة الأدبية ، وأخضعوا له هذا الأسلوب العلمى الدقيق .

ولست بمصور لك حقائق الصدمات التى اعترضتهم فى ذلك ، ولكنى أرجو أن أسجل — بعد استئذانهم — صدمة واحدة من هذه الصدمات ، التى كانت تستنفد الوقت كله ؛ فأقول لك إن اللفظة الواحدة قلما كانت تنتهى إلى عامل المطبعة ، قبل أن يصهروها فى بوتقة التحقيق

الشامل صبراً ، وقبل أن يؤمنوا — ثلاثتهم — أنها كفيلة بأن تترجم عما يختلج به سفر هذا العلم الواسع من أخاليج .

وقد يبدو هذا الحرص فى عقلية الرجل العادى : كأنه عمل تافه ، وضيع لا عناء فيه . ولكنك متى أدركت أن كثيراً من ألفاظ المترادفات فى اللغة العربية ، لا تستطيع أن تؤدى كلها إلى معنى واحد ، ومتى أدركت — إلى ذلك — أن هذه اللغة العربية لا تزال فى حاجة لمن يحسن استخدامها فى الأسلوب العلمى الحديث ؛ متى أدركت هذا كله ، استطعت — فى سهولة ويسر — أن تلمس بيديك هذا العناء الذى صادفهم ، وذلك الجهد الذى أخلصوا فيه إخلاصاً جماً .

وليس هذا عليهم بكثير ؛ فإن أقدارهم العلمية قد هيأت لهم ذلك ، كما هيأت لهم أن يظهروا هذا الكتاب فى حلة شملت من علم النفس كل قول ، ونأت عن كل قبيحة .

— ٨ —

أما بعد ، فإنى أخرج من هذا التصدير إلى تسجيل أمرين .

أما الأول ، فهو أنى خرجت من موقف الحيرة الذى أوقفتنى دراساتى السابقة عن النفس والروح وما إليهما ، بفضل هذا الكتاب الذى أوقفنى على سر دفين من أسرار العبارة الخالدة « اعرف نفسك بنفسك » ، والحديث الشريف « من عرف نفسه فقد عرف ربه » .

كما أتاح لى أن أدرك أن علم النفس قد تزحزح عن موقفه الجامد . وأن هذا الكتاب يعد فتحاً جديداً فى عالم التأليف باللغة العربية . بل إن كل صفحة من صفحاته لتعد ثروة طائلة مما تزود به اللغة العربية ، فتدفع عنها تهمة الجمود والقصور . وأكبر اليقين عندى أنهم بلغوا الأوج ، فإن ما فى الكتاب من أسلوب علمى ، وما فيه من إسهاب تربه دقيق ، كفيل بتحقيق ما قدمت .

فأما الأمر الثانى ، فإن فى تسجيله فخاراً « للمعرفة » أى فخار ؛ ذلك أن ثلاثة من كتابها الأفذاذ ، قد استطاعوا اليوم أن يقتحموا باب البحث العلمى بهذا الكتاب الفذ ، بل بهذه الموسوعة الضخمة .

حقق الله لهذا الكتاب من الانتفاع به ، ما يكافئ جهود مؤلفيه .

عن دار المعرفة فى ٣٠ أكتوبر ١٩٣٢ عبد العزيز السيد سيرلى